

صفحة الموفيات

بقلم: ميشيل أريفييه

ترجمها من الفرنسية : أ.د. حامد طاهر

لقد نجحت حتى الآن في حياتي . من يعترض على ذلك؟ ففي سن الثانية والخمسين أصبحت واحداً من الأساتذة المعدودين في الجامعات الطبية . ومن فترة قصيرة جداً أصبح المطريق أمامي ممهداً للحصول على أعلى رتبة في الدرجة التي أشغلها . ثم لم تبق إلّا سنة أو سنتان . وأغدوا ذا مكانة استثنائية فريدة: أكاديمية الطب ! أجل فقد بدأت أفكر فيها , مع أن تخصصي - الذي هو الأمراض العقلية والنفسية لدى الأطفال , وليس التحلل للنفسي الذي أكرهه وأحتقره - يعتبر بالأحرى عقبة . لكن على أي حال , مازال الوقت أمامي مبكراً . ولتقديم ترشيحي مع ضمان فرص النجاح , ينبغي تواضع عدة علاقات صداقة مع الزملاء ذوي النفوذ . وحتى الآن , لم أفعل شيئاً بالنسبة إلى ما تسرب إلى عروض . لكنني أرهف السمع جيداً . وفي العادة , سوف يحدث هذا بعد عدة شهور فقط . عندئذ ينبغي القيام بحملة دعائية مكثفة . وأنا لا أرفض هذا النوع من الإجراءات من الطبيعي أنه لم تعد توجد لدي أي هموم مالية . ومن ناحية أخرى , فلم يكن لدي قط مشاكل خطيرة من هذا الجانب . لكن الذي كان يتعين علي , منذ البداية في ممارسة مهنتي , أن أعيش في مستوى حياة زملائي . ومع ذلك , فقد سبقتهم أحياناً في شراء سيارة " سيور " آخر موضة , وقارب , وحتى موتوسيكل كبير لم أتمكن أبداً من السيطرة عليه . ثم تنظيم حفلات استقبال خاصة , وفخمة , وأحياناً مبتذلة , والقيام برحلات بعيدة جداً ..

وهذا كله كان يضطرنني . وخاصة منذ عدة سنوات , أن أزيد قليلاً من عدد الاستشارات الطبية الخاصة التي أقوم بها!

لكنني أواجه الآن , ودون أدنى صعوبة , كافة مصروفاتي: شقة 170 متراً مربعاً في الحي السادس عشر ببباريس , فيللا كبيرة في نانسي , شاليه في ميربيل لا أذهب إليه إلا مرة واحدة في العام لكي أتتحقق فقط من أن مستواي في التزحلق على الجليد لم يتدهور بعد بصورة واضحة . وفي الوقت الذي بدأت فيه بالتدريج أفضل مغادرة شارع موزار ببباريس إلى منتجعات سولوني أو الألب , فإن ما راح يضايقني هو عدم توازن جرائد باريس بالمنتظام المعهود . وهذا يسبب ثغرات مزعجة جداً في وثائقي . ويكفي أنه في اثناء غيابي عن باريس تتراكم في منزلي أعداد الجرائد المتسعة التي تصلني من الأقاليم . وهنا يلزمني , عند عودتي , وقت طويل لفتحها , وقراءتها ,

ودراستها , وتصنيف المقالات التي تهمني منها

..

أما زوجتي فقد ساعدتني كثيراً في مهنتي . فهي التي تنظم , مرة على الأقل في الشهر , حفل استقبال فاخر , لا تقتصر فيه على دعوة الزملاء فقط , وإنما تدعو إليه أيضاً رجال أعمال , وشخصيات من الوسط الفني والأدبي , وأحياناً رجل سياسة , من حزب الأغلبية بالطبع . والواقع أنني أحفظ بعلاقات ممتازة مع الحزب الجمهوري . وقد حدث من عامين أنهم دعوني لكي أرشح نفسي في صفوفهم .

وكان من الواجب أن أقبل , لأنه في تلك الأثناء , اقترح اسمي للحصول على وسام الشرف . وجرت الأمور بسرعة . فقبل توقيع القرار , عدلت عن فكرة الترشيح نهائياً . لقد كان من المؤكد أن أحصل على الوسام لو أن عدولي عن الترشيح قد تأخر قليلاً . ومنذ عدة أسابيع , تستحثني زوجتي على معاودة الإجراءات اللازمة للحصول على وسام الشرف . إن حلمها الآن قد أصبح ينحصر في حصولي على هذا الوسام , مع انتخابي في الأكاديمية . لكنها , فيما يبدو

متعجلة جداً بالنسبة لهذا وذلك

.

أنا في صحة جيدة . وعلى الأقل , هذا ما يؤكدّه زملائي الأطباء كلما ذهبت لاستشارتهم حول علامة أخرى من علامات الخطر " أوه .. إنني أتمنى بروساتنا مثل التي لديك " أو " قلبك .. إنه ممتاز . توقف فقط عن التدخين . وستكون مطمئناً لمدة ثلاثين سنة قادمة " .. كلمات أعلم جيداً ما تهدف إليه , وهو أن تجعلني أحفظ بتوازي . إنها لا تلتزم بشيء . فهي مصنوعة , بل إنها تقال في جو المنافسة المعروف . وعلى أية حال , فهي مطمئن للحظات

..

أما بالنسبة إلى علاقتي الزوجية ، فليس لدي بعد هموم خطيرة . لكنني أضطر من وقت لآخر أن أساعد نفسي ببعض المثيرات الخيالية التي ربما لا يليق التصريح بها . ومع ذلك ، فإن اليوم - الذي أصبح فيه مثل هذه الأمور عديمة الفعالية - يقترب . وعموماً فإن الانخفاض التدريجي للدرجات الجنسية له جانب طيب . فهو يجعل الحياة أقل اضطراباً ، وأكثر راحة ، وبالعامة: يجعلها حياة سعيدة .

أنشر ، مرة أخرى في السنة على الأقل ، مقالة علمية مختصرة في إحدى المجلات التي لي حقوق فيها . فأنا عضو في هيئة تحكيم مجلتين منها ، وهذا يتيح لي ، على أي حال ، إمكانية نشر آتفه الكتابات . لكنني لا أذهب إلى هذا الحد . فالذي يرضيني فقط هو أن أتحقق بصفة دورية من أن إيقاع نشري يظل متوازناً مع معدل نشر زملائي . وربما يحدث بالتدريج . وابتداء من سن معينة ، وخاصة من درجة علمية معينة ، أننا لا ننشر شيئاً . إن بعض الزملاء يسمحون لأنفسهم أن يضعوا أسماءهم على مؤلفات مساعديهم ، بل إنهم يتفادون بأنهم قد سمحوا لهم بمشاركتهم في التوقيع على العمل المنشور . لكنني شخصياً لم أسمح لنفسي بعد بهذا العمل . إن كتابي السابق " دراسة لتحليل النفسي - التربوي للطبي للمعتوه المتوسط " يكفي - بإعادة طباعته المتتالية - للحفاظ على سمعتي العلمية التي تبدو لي كافية . لأنني في الواقع لا أملك الوقت الكافي للقيام بعمل حقيقي آخر في مجال التأليف: إنني مشغول جداً بتصنيف ما أقطعه من صفحات الجرائد ، بل إنني لا أكاد أتمكن من ذلك على النحو المطلوب .

إن موضوع هوايتي يدهش من يسمعه . أو هذا على الأقل ما تزعمه زوجتي .

النجاح .. لقد تحدثت عنه . ومع ذلك ، فإن كل شيء في حياتي ليس وردياً . هناك بصفة خاصة مقابلة الأطفال المرضى . وأنا لا أرثي لهم . فباستثناء بعض الحالات ، لا يدون تعساء جداً . ومن النادر أن يعانون من مرض فيزيقي . لكن ما يؤرقني حقيقة هو ذلك الشعور بالعجز الكامل الذي ينتابني في مواجهتهم .

صوت الأحاديث المتكلفة التي ينبغي إلقاؤها - لكي لا يوجي الموقف باليأس الشديد - أمام آياتهم . لقد أصبحت هذه الأحاديث تقريباً متشابهة .

لا يكاد يوجد منها أكثر من أربعة أو خمسة أحاديث . وأنا متأكد من أن زملائي الأطباء في نفس التخصص يستخدمون نفس العبارات مع فوارق بسيطة جداً .

ولما يقتصر ذلك على الألفاظ ، وإنما يشمل أيضاً الحركات والمهجة . لكأني الآن أصغى لهذا الحديث الأحمق الذي ينساب على شفتي مثل الصنبور الذي يخر !

هناك أيضاً تلك اللحظات الخاطفة من العدم، التي ألاحظها من وقت لآخر، وبقدر من الدهشة يتزايد في كل مرة. فعندما أتابع فكرة ما، ألاحظ - على مدى أجزاء قليلة جداً من الثانية - أنها تهرب مني. ومع ذلك فهي لا تترك ذهني.. أجل هذه هي الكلمة الوحيدة التي يمكنني استخدامها للإشارة إلى حركة ذلك الحشد الهائل المتناثر في تلايف المخ البارد. وأكثر منها هروباً، ذلك المكان الخالي من الذاكرة. إنني أعلم جيداً أن هذا كله لا معنى له

وبالتالي فأنا أقاوم ذاكرتي، وأحاول إزالة هذه الأشياء منها بأسرع وقت ممكن. ومن الطبيعي ألا تظهر هذه اللحظات القصيرة من العدم في أحاديثي

وهذا على الأقل ما أفخر به، أود في محاضراتي التي ألقاها على الطلاب

الذين لم تعد تربطني بهم علاقة حميمة. وبالتالي فإنني قد أفشيها أحياناً إلى زملائي من نفس العمر والذين تبدو عليهم نفس الأعراض: علامة بداية المضعف

ظل من الحيرة والتردد في النظر، ثم سواد خفيف تحت الجفنين.. وكل ذلك يتيح لي أن ألاحظها وأصنفها بسهولة في أفراد جيلي

لقد أضعت وقتاً طويلاً في اكتشاف التسلية، القربية من القلب، والتي أشغل بها نفسي. ومن الغريب أن ما يوجد حولي من ألعاب مثل البريدج، والجولف، وبعض الرياضات الأرستقراطية الأخرى - لا تثيرني أبداً. وهكذا لا يعود الزمن لأكثر من ثلاث سنوات فقط حين اكتشفت هوايتي المفضلة، وهي تشغلي بالتدريج على نحو مرضٍ تماماً. لكن زوجتي بدأ تقلق من انكبابي عليها بصورة واضحة جداً، وكم بذلت جهداً شاقاً لكي تبعدني عنها، أو لكي تصعب علي ممارستها. وبعيداً لم تثمر جهودها في هذا الصدد. لكنها ما زالت مستمرة في الإلحاح على أن تظل هذه الهواية "سراً" لا يعرفه أحد. وأخشى أن أصرح بكلمة "انحلال" مع أنني لا أفهم أسباب ذلك. فأني فضيحة بالنسبة إلى "بروفيسور" أمراض عقلية خاصة بالأطفال أن يعكف، بهوى ووجد بالغين، على صفحة الوفيات في الجرائد؟!

إن الجانب الطبي - والحق يقال - ليس هو الذي يستهويني. فأنا لا أتبين، بصورة منهجية، سن الوفاة. أما بالنسبة لسبب الوفاة، فلا يذكر إلماً نادراً، وفي أغلب الأحيان، بصورة غير محددة. فمن المؤكد وأنا في هذا مقتنع تماماً - اعتماداً على عدة استشهادات - أن عبارة "توفي على إثر مرض طويل ومؤلم" التي تذكر كثيراً: لا تدل دائماً على أنه السرطان!

إن ما يستوقظني، بل يبهرنني، هو شكل إعلان الوفاة. كل إقليم له عاداته: فليس هناك تشابه بين إعلانات الوفاة في جريدة " أخبار

الأزاس " وإعلانات جريدة " جمهورية البرينيه " . ومن الغريب حقاً أن تتدخل مساحة قليلة جداً من المفروق الجغرافية وفي تغير شكل إعلان الوفاة بين جريدتين من إقليمين متجاورين . فهنا , تذكر علاقات القربى مع المتوفى بعد اسم كل شخص من أقاربه المنشورين بالنعي وهناك تتجمع الأسماء بدون ترتيب بعد اسم المتوفى . وفي غير هذا وذلك تتوالى الأسماء في صمت . وفي إقليم ما , تبدو المراجع الدينية ولما توجد أبداً في إقليم آخر

في شهر يناير الماضي , قمت بتغيير قائمة الجرائد التي كنت مشتركاً بها . وسأفعل نفس الشيء في يناير القادم . وهكذا بعد ثلاث أو أربع سنوات , سأقف على كل إعلانات الوفاة في كل الجرائد الفرنسية . وفي النية أن أضيف للمشروع جرائد البلاد الأخرى المناطقة بالفرنسية: كيف يعلنون عن موتاهم في لوران ؟ وبروكسل ؟ وفي ميناء الأمير بجزيرة موريالك ؟ أجل .. إن أمامي عملاً كثيراً

وينبغي الاعتراف بأن جرائد باريس تبدو باهتة جداً في مجال إعلانات الوفيات بالنسبة إلى جرائد الأقاليم , ما عدا جريدتين تمثلان استثناءً واضحاً : الفيجارو , ولوموند بصفة خاصة . إن هذه الأخيرة بالذات تحتوي على نظام أكثر تطوراً , فهي تقوم بتنفيذ ترتيب صارم يحدد بدقة باللغة مكانة المتوفى . ولنبدأ من أدنى المستويات :

-الجزء الأول من النعي , وهو المبلغ كما هو من العائلة دون أدنى تدخل من تحرير المجريدة . وتلك حالة متواضعة جداً . لكنها على أي حال , أفضل من الصمت المطلق , الذي يعني " الموت في الموت " . فبهذه الصورة يبدو أن الشخص المتوفى قد استفاد من نشر اسمه في " لوموند ! "

-أعلى من هذا مباشرة: تأتي شخصية أكثر احتراماً . فهناك الملاحظات البيوجرافية المختصرة , الموضوعية بين أقواس , وهي ترد بعد النعي , لكنها تظل في ذلك المكان المحدد الذي يفرضه الترتيب الأبجدي .

-مرتبة أعلى في الاحترام: اسمك يطبع ببنت أكبر , ويكون عنواناً للنعي .

-وأفضل من ذلك: أن يحتل الترتيب الأبجدي المعهود , ويقفز اسمك إلى رأس صفحة الوفيات .

-وأخيراً ذاتي إلى الموت المحترم بحق: حين يشير إعلان الوفاة , بواسطة إحالات مختصرة بين أقواس صغيرة , إلى مقال منشور في مكان آخر من المجريدة .

-أما نهاية النهاية: فهي أن يتسرب اسم المتوفى إلى الصفحة الأولى من المجريدة .

إن شهور السنة تلعب دوراً ملحوظاً في هذا المجال.

فالناس يموتون , في جريدة " لوموند " في شهر أغسطس.

وأنا أحتفظ بنسخة من عمود خال تماماً من أي إشارة إلى إعلان وفاة . وفي المقابل من ذلك , تكثر الوفيات غالباً في شهر سبتمبر .
ويبدو أن العودة الجنازية تصاحب العودة الثقافية.

لا شك في أنني أتساءل أحياناً: أي مكان سيحفظ لي , عند حلول الأجل , في هذا التصنيف الرائع . إنني لا أجريّ على الطمع في المقال المحرر , وخاصة في الصفحة الأولى . لكنني على الأقل , سأصبح عضواً في الأكاديمية . وهندئذ فإن قلب الترتيب الألفبائي يبدو قريب الاحتمال . وسوف يكون من المخجل حقاً ألا أحظى بالإشارات البيوجرافية . والذي يعيش سوف يرى:

ريجي ليكرو

بلغنا نبأ الوفاة التي حدثت في 7 سبتمبر 1985 في باريس للبروفيسور ريجي ليكرو , عضو أكاديمية الطب , والحاصل على وسام الشرف.

[مولود في سان بريك 25 إبريل 1927 , عين ريجي ليكرو طبيباً ممارساً في المستشفيات العقلية للمسنين 1951 , وأصبح منذ سنة 1969 أستاذاً للأمراض العقلية للأطفال في جامعة باريس . كتابه " دراسة لتحليل النفسي - التربوي , الطبي للمعتوه المتوسط " المنشور سنة 1964 ما زال يستخدم حتى الآن كمرجع للطلاب والأساتذة على
المساواة
].

"صدفة غريبة: قبل أسبوع واحد من وفاته , التي حدثت فجأة , حصل البروفيسور ليكرو على وسام الشرف , كما انتخب عضواً في الأكاديمية الطبية " □ انظر : لوموند , سبتمبر .